الدهليز المكشوف

للأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله

أخذت روائح الربا تهب على أسرة النجار مرة أخرى بعد أن مسح الزمان على الوالد بيد على أطرافها مرهم قليل . وبدأ عقدهم يلتئم كل مساء فى دهليز دارهم المكشوف الذى يقع تحت ناظرى مباشرة كلما أطللت من نافذتى نحو الجنوب

كنت أراهم فى ليالى الصيف مفترشين الحصير تنصب عليهم أشعة القمر فتغنيهم عن المصباح أو تلمع فى كانونهم جمرات الحشب فتلقى عليهم نوراً أحمر إن لم يكن هناك قمر . يتبادلون الحديث الساذج المطبوع بطابع الرضا والسلامة والإيمان بالقضاء والقدر، تلك المعانى التى تمشى فى الريف جنبا إلى جنب مع دقيق الذرة ومع الجبن والرايب!!

مسح الزمان على جراح الوالد فتمثل مصابه . تمثله وتشربته نفسه أيا كان طعمه لأنه من البلايا التى لا تنسى

كان نجارا فى القرية يصنع ما يصنعه هنالك كل نجار . فى أدواته حشونة أدوات أصحاب الحرف فى الريف لأن عمله لا يعدو أن يكون إصلاح ترس أو تركيب يدفأس أو صنع وتد لحيوان أو شيئا من هذا القبيل فهو لا يصنع خوانا ولا صوانا ولا أثاثا مما خلقته الحضارة . ثم أعفاه الزمان من هذه الحرفة التى بلغ حد نقمته عليها أنه أقسم ألا يعلم ابنه إياها ! لكن طريقة الإعفاء كانت كريهة فلقد كف بصره فجأة حين نجم فى عينيه ما يسمونه « ماء » ... علة تستل نور الأبصار برفق خبيث ثم تدع المقلة وكأنها سليمة فتخدع فيها العيون السليمة

وأصبحت أسرة النجار منذ ذلك الحين موضع رعاية أهل البر لأن الرجل لم يكن ذا ولد يمكن أن يعوله ، ولأنه باع أدوات النجارة بثمن بخس زكاه فى نفسه أنه لم يعد محتاجا إلى قدوم ولا منشار . وأسند إليه أهل القرية عملا يتناسب مع ما أهداه إليه القضاء . يتناسب معه تماما ويكاد يكون « مؤهلا » مشروطا لمن يقوم بمثل هذه الوظيفة فلقد عينوه « ملا » يدير مضخة كابية ترفع الماء إلى صهريج المسجد

لكن حسن النجار ما كان يرى وحده فى طريق ...

كان لا بد له من فترة حتى يألف حياته الجديدة ... أعنى حياة الظلام الدائم . فكان ابنه « ربيع » يسير إلى جواره يهديه سبيله لأن الذين ينطفئ النور فى أبصارهم وهم كبار يحتاجون إلى فسحة من الوقت لتتمكن بقية الحواس من أن تتحمل ما كانت تتحمله العين قبل ذلك . لا بد من وقت للداخل فى دنيا الظلام على كبر حتى تتدرب أذنه على قياس المسافات فيعرف عرض الطريق من أحاديث المارة على جانبى الطريق ، وطول المدى بينه وبين الكلب النابح من صوت نباح هذا الكلب ، وارتفاع النخلة أو الشجرة من همس الريح فى ذوائب إحداها . ولا بد للأنف كذلك من مدة ليتدرب على معرفة الأماكن والأوقات فيشم رائحة الربيع كما يشم رائحة الشتاء ، ويميز رائحة الصبح كما يميز رائحة المساء !! وهذه هى سنة التعويض التى يجرى بها قانون الحياة !!

كان « ربيع » فى السادسة من عمره ، صبيحا مليحا ، يستأثر بقلبك منه وجه مستدير أسمر تشغل عيناه منه مساحة كبيرة كأنها لم تترك لبقية أعضاء الوجه مكانا فشغل الفم والأنف مساحات صغيرة . وكنا لا نراه إلا باسما تطرف أهدابه باستمرار إذا ما نظر طرفات حلوة تراسلها ابتسامة دائمة فيتألف من ذلك كله معنى يستطيع ربيع أن يتودد به أقسى قلوب الناس . أما الجميل الشاذ فى ابن النجار ، فقد كان شعره :

لم يكن يذهب إلى الحلاق لأن أمه كانت تقوم بهذه المهمة . كانت تجز رأسه بالمقص فترى ضربة هنا وضربة هناك ، وشطبا فى الشعر كأنها شطب السيف ، وفى أعلى الجبهة « شوشة » وفى أعلى الجبين « شوشة » كذلك ... منظر شاذ قد لا تتصوره عينا مدنى لكنه أحلى من الشهد موقعا فى قلوب الناس وبخاصة إذا ناست هذه الخصلات مع هبات النسيم

كان أكبر أبناء أبيه على حداثة سنه ، كما كان المحور الذى تدور حوله آمالهم وآلامهم وبخاصة بعد أن فقد الأب نور عينيه ، وكان اسمه إذا ما جن الليل وجلسوا فى الدهليز المكشوف ينادى ألف مرة كأنما كان — كما يقولون عنه — إداماً لخبزهم وسكرا لشايهم وكعكهم فى ليالى العيد ، ومسكنا لآلامهم إذا ما ثارت فى نفوسهم حوادث الماضى

وقد رأيته منذ أسبوع مضى وهو واقف إلى جوار أبيه فى ضحى يوم العيد . وكان يجمع بيده الصغيرة الملاليم فيعطيها للوالد ، وأقراص الفطير وأطواق الكعك فيضعها فى غرارة شدت إلى حامل الأرجوحة . تلك الأشياء التى يقدمها الصبيان أحمر الركوب أرجوحة الصناديق التى يملكها النجار والتى

صنعها أيام كان مبصرا وطلى خشبها بألوان زاهية فيها سذاجة واضطراب لكنهما يسحران لب الصغار . وكان على « ربيع » جلباب جديد أحمر ، وعلى فمه ابتسامة جديدة بيضاء ، وفي قدميه حذاء قديم أسود ، واسع قليلا ، فهو يثير به التراب إذا ما خطا على الأرض .

* * *

هذا هو الدهليز المكشوف يقع تحت ناظرى وقد أطللت عليه من الشباك . وفى السماء قوس هلال ضئيل لم يستطع نوره أن يبين الأشباح فى دار حسن النجار بوضوح كامل . لكن الذى أثار فضولى وهيج انتباهى أن سحابة ثم كانت ترفرف على المكان .

كان جوهم ثقيلا تمشي فى نواحيه وحشة كثيبة . وهناك قدر على النار يسطع بخارها مختلطا بدخان الحطب « وقوالح » الذرة ، والأم منحنية على وليد صغير يمتص درها ويصرخ بين فترة وفترة فتسد فمه بإلقامه الثدى . أما الأب فكان منزويا ساكنا وعلى الحصير بين أيديهم رقد ابنهم ربيع .

وطالت جلستى فى النافذة حتى هجعت القرية فلم يعد ينتهى إلى مسمعى إلا أصوات بعض الفلاحين وهم يجأرون بالغناء على صرير الطنابير التى تروى الأرض فى موسم التحاريق وبعض ضفادع طال سمرها فى البركة القريبة . وانطفأ الكانون ونام الرضيع ثم نادت الأم ابنها الأكبر لينهض فينال شيئا من لحم الدجاجة التى ذبحتها من أجله !! ولكنه أجابها بأنين وتململ وضجر ، ولم يطل بينهما النقاش لأن الأب تحسس رأس ولده وقال مخاطبا زوجه : دعيه مرتاحا . ثم رفع رأسه إلى السماء وقال مخاطبا ربه : يا إلهى ... أنت جاهى !!

وصاح ديك مع الفجر واتصل صياحه بعويل امرأة حتى كأنه امتداد لهذا الصياح فهببت مذعورا وأطللت على دهليز حسن النجار لأننى لم أكن نسيت أن ابنه مريض ، فرأيت على نور أول شعاع من الفجر شبحى الأبوين وهما يتنزيان كما تتنزى كرة المطاط بين الأرض ويد اللاعب ، لم يكن أحدهما يقول شيئا جديدا ولا غريبا عما تعودا أن يقولاه ، بل كانا يناديان على التوالى أو فى نفس واحد ، باسمه فحسب ، كأنهما كانا يتوقعان أنه سيجيب !!

ثم درج الزمان فى طريقه غير ملتفت لشيء وأظل المساء الأول بعد غياب الصغير عن دار أبيه ، وانصرف بعض النسوة وبعض رجال كانوا يعزون ، وخلت الدار بالزوجين وأطللت من نافذتى كأنما لأسهر على وحدتهم من بعيد فرأيتهما ينطويان على نفسيهما ويتكور كل منهما فى ركن ويستسلم

للنوم فى سكون بائس . لكن الحال لم تدم على هذا المنوال فقد بدا الجزع واضحا على الأب فى الليالى التالية ؛ أما الأم فقد كان حزنها كئيبا صامتا كأنه حزن المقابر . لكن حسن النجار كان يقضى الليل فى حركة وكلام لا ينقطعان ، اللهم إلا فترات من السكون خيل إلى أن الرجل كان يناقش فيه قضية نفسه ثم يعلن نتيجة النقاش جملا قصيرة لعلها عتاب تشوبه الشكوى أو شكوى يمازجها العتاب فيقول : يا إلهى ... ضاع عكاز الأعمى ... وبقى الأعمى بلا عكاز !! ثم يقوم فيقطع الدهليز فى جيئة وذهاب ويداه ممدودتان أمامه كأنما ليتقى بهما شيئا ، يفعل ذلك وهو يردد : عكاز الأعمى يا إلهى ... عكاز الأعمى يارب ! !

كنت فى نافذتى أتدبر القضية التى يتدبرها حسن النجار فى ضميره وأحاول أن أصدر فيها حكما ولكننى لا ألبث أن أتنحى عن الموضوع لأننى لست جديرا بأن أحكم فيه . لكن معنى واحدا سيطر على إحساسى حتى استرقنى وجعلنى عبدا له ، وهو أن الموت ضرورة لهذا الرجل . كنت أراه يجد السير فى طريق له شعبتان إحداهما جنون وإحداهما هلاك . فتمنيت أن تهديه قدماه اللتان تقودهما الأقدار إلى الشعبة التى تفضى به إلى الموت فإنها خير على كل حال

* * *

ولم يقو حسن النجار بعد ذلك على إدارة المضخة إلى الصهريج لأن قواه قد خارت من أثر الصدمة . ولم يكن هناك من يهديه السبيل بعد أن خرجت زوجته إلى العمل فى الحقول

وحرم أهل الحارة على أبنائهم أكل التين الشوكى مدة طويلة . ولم يعد أحدهم يسمح لولده أن يتسلل من مرقده فى الصباح الباكر ليسبق غيره إلى جمع البلح من تحت أقدام النخيل حتى لا يفضى به المسير إلى تلكم الربوة العالية التى تغطيها أشجار التين فى جهامة وجفارة فيلقى مصير ربيع بن حسن النجار .

تسلل إلى هناك متسلحا بقطعة من الصفيح زاحفا على بطنه كما تفعل القنافذ حتى لا يراه عين الخفير . وجعل يعمل السكين فى الثمار ويأكل حتى تصلب شعاع الشمس من خلال ألواح التين . ولم يكن الصبى يعلم أنه ظلم نفسه وأنه أكل فوق ما يطيق وأنه ملأ بطنه « زلطا » وحصا سيكون آخر ما تزود من الدنيا . ثم ... ثم رانت الوحشة على الدهليز المكشوف !!

* * *

قلت لطبيب المستشفى المركزى بعد أن رأيت على وجهه دلائل الألم :

إن رأيى فى مشكلة النجار قديم يرجع عهده إلى تاريخ موت ابنه ؛ فقد كان الرجل

يتعذب إلى حد جعلني أدرك مغزى « خلق الموت والحياة » . أجل يا سيدى إن الموت شئ يجب أن يخلق . فهز الطبيب كتفه وقال بصوت لا يخلو من العتاب : أتحدثنى عن الموت ؟ أتحدث عنه طبيبا والموت هو المحور الذى تدور حوله أعمال كل طبيب ؟! فقلت : عفوا ، بل قصدت أنه نعمة بالنسبة لذلك النجار

لم يتكلم منذ دخل المستشفى بكلام مفيد بل كان يخلط فلم يفهم عنه جيرانه شيئا . وها هو ذا فى فراشه اليوم يحيط به « راقان » ايعزله عن بقية الحجرة حيث الحياة مرجوه والشفاء مرتقب . وكان لا بد للنجار أن يدخل هـذا المستشفى لأنه كثيرا ما ضاق بالوجود فاستعان بعصاه وخرج هائما على وجهه حتى إذا ما استقبل الفضاء وأحس خلاء الحقول رفع عقيرته صائحا بملء حريتـه مناديا ولده فلا يرد عليه إلا الصدى

كان يفعل ذلك من حين إلى حين حتى تردى ذات يوم فى حفرة عميقة على جانب الطريق وعلى رأس مزرعة . حول أحد الفلاحين طينها إلى لبن استعمله فى البناء ثم تركها تردم رويدا رويدا كلما شاء أن تلقى فى جوفها بشئ

واستقر فى أعماقها النجار وأصابه منها ما أصابه . ثم انتشلوه وعلى وجهه دم وطين وفى ضلوعه وأحشائه إصابات عميقة . وقال أهل القرية : إن يد أحد الصبيان العابثين هى التى قادته نحو هـذا المصير يوم قال له الشقى : اتبعنى يا سيدى أهدك سبيلك . فذكر الرجل ابنه فسأله عن اسمه ، فأجاب العابث كاذبا : اسمى ربيع . فحن الأعمى وتحسس رأسه فألقى على جبينه « شوشة » فتبعه فى غمرة من الذكرى حتى قاد خطاه إلى أعماق الهوة . وكان هناك صبيان آخرون شهدوا المنظر لـكنهم تفرقوا من الذعر فى كل صوب كما تتفرق العصافير عند فرقعة الرصاصة !

وقد حرصت — وأنا جاره — على أن أتحرى صحة الرواية ، لـكننى رجعت بفكر مبلبل وخاطر متشتت ، وخيل إلى أن كل حادثة تقع مرتين على الأقل ، مرة فى عالم الحقيقة ومرة أخرى فى خيال الناس

ولـكن كل هـذا لا يغنى بعد أن وصل النجار إلى ما وصل إليه

وضعت عند رأسه بعض فاكهة حملتها على أمل أن يفيق فيطعم منها شيئا لـكنه كان يجد السير نحو النهاية المحتومة

رأيته آخر ما رأيتـه يمد يده إلى الأمام على هيئة من يتحسس الطريق وهو يقول : المكاز ... عكاز الأعمى ... ! ! فقدمت له عصاى على الرغم من أننى فاهم كل ما يقصد . فأمسك العصا بين كفيه وقبض عليها بقوة .